الشعر قنديل أخضر

نزار قبانى

إلى القارئ

هذا القنديل ما فكرت في يوم من الأيام أن يخرج من غرفتي إلى غرف الآخرين ..

إنه قنديلي الخاص الذي أردت دائماً أن يكون لي وحدي ، بزجاجته الصفراء ، وشعلته النحيلة ، وعينه الخضراء ..

ولكن أصدقائي الطيبين ، الذين أخذوا قلبي وضوء عيني ، لم يقبلوا أن يتركوا لي حتى هذا القنديل الصغير الذي كان صديق وحشتي وسريري. أخذوه وتركوا لي مكانه ورقة صغيرة تقول:

" نثرك مثل شِعرك لابد من مصادرته .. "

الورقة أرضت غروري. لكنها لم ترض ضميري .

ذلك أن قضية المستوى الفني تظل عقدتي المزمنة التي لا أشفى منها ولا أريد أن أشفى منها . إنها الصداع الذي يفترسني دائماً قبل أن أجتاز باب المطبعة.

وبعد .. فهذا هو القنديل الذي صودر من حجرتي ، أقدمه للقراء كما هو .. بزجاجته الصفراء ، وشعلته النحيلة ، وعينه الخضراء ..

أقدمه لهم ، ويدي على قلبي ..

مدريد 1/1/ 1963

نزار

مذكرات أندلسية

- 1 -

في إسبانيا

لم أحتجْ إلى دواةْ

ولا إلى حبر أسقي به عطش الورقْ

عيون مورينا روساليا

ترشني بالشوق الأسودْ

عيون مورينا روساليا

دواةٌ سوداءْ

أغطُّ فيها ولا أسألْ

وتشرب حياتي ولا تسألْ

كهودجٍ عربيّ

يحفر مصيره في الأبعادْ

يحفر مصيره

في مصيري

مدريد 1955/8/5

- 2 -

شَعْرُ ميراندا ألافيدرا الكثيفْ

المتنفِّــسُ كغابة أفريقية

أطولُ حكاية شوق سمعتــُها في حياتي

ما أكثر حكايا الشوق التي سمعتــُها في حياتي

وأكلتْ حياتي

إشبيلية 1955/8/8

- 3 -

الراقصةُ الإسبانية

تقول بأصابعها كلَّ شيء ..

والرقص الإسباني هو الرقص الوحيد

الذي يستحيل فيه الإصبع إلى فمْ ..

النداءُ الساخن ..

والمواعيدُ العطشى

والرضى ، والغضبْ

والشهوةُ ، والتمنّي

كل هذا يقالْ

بشهقة إصبعْ ..

بنقرة إصبعْ ..

*

أنا في محلِّـي

وسمفونيـة الأصابع هنـاكْ

تحصدنـي ..

تشيلـُـنـي ..

تحطـّـنـي ..

على تنـّـورة أندلسيـة

سرقتْ زهرَ الأندلس كلـه

ولـم تسألْ

وسرقت نـهارَ عيونـي

ولم تسألْ ..

أنا في محلـِّي ..

والكأسُ العشرون في محلـّها

وسمفونية الأصابع ..

في أوج مدِّها وجزْرها

والمطرُ الأسودْ ..

المتساقط من فتحات العيون الواسعة ..

شيء لا يعرفه تاريخُ المطرْ

لا تذكره ذاكرةُ المطرْ ..

أنا في محلـِّي

فيا مطرَ الأعين السودْ ..

سألتكَ لا تنقطعْ

غرناطة **1955/8/10**

- 4 -

ما تمنَّـيتُ أن أكون

عرْوةً في رداءْ ..

إلا في المتحف الحربي في مدريد

الرداء لأبي عبد الله الصغير

والسيفُ سيفهُ ..

السائحون الأجانب ..

لا يستوقفهم الرداءْ ..

ولا السيفْ ..

أما أنا ..

فيربطني بالرداءْ

وبصاحب الرداءْ

ألفُ سببْ

هل تعرفون كيف يقف الطفلُ اليتيمُ

أمام ثياب أبيه الراحل ؟

هكذا وقفتُ

أمام الجام الزجاجيّ المغلقْ

أستجدي الزركشاتْ

آكـُلُ بخيالي النسيجْ

خيطاً ..

خيطاً ..

*

ومع هذا ..

لم يتركني أبو عبد الله الصغير

وحدي في المدينة ..

كان كلَّ ليلة ..

يلبس رداءه

ويترك جامه الزجاجي في المتحف الحربي

ليمشي معي

في بولفار الكاستيانا في مدريد ..

ليدلني ..

على وريثاته الأندلسيات

واحدةً .. واحدة ..

- هل تعرفُ هذه الجميلة ؟

- لا ..

- هذه كان اسمها (نـُـوار بنت عمَّار) وكان أبوها

عمَّار بن الأحنف رجلاً ذا فضل ويسار ،

وكانت نـُوار هذه تدرج كالقطاة بيننا وتنهض

كالنخلة المسحوبة بين لداتها في الحي ..

- لماذا لا نناديها يا أبا عبد الله ؟

- إنها لا تعرفُ اسمها ..

- وهل ينسى أحد اسمه ؟

- نعم .. هذا يحدث في التاريخ .. إن اسمها

الآن أصبح NORA EL AMARO بدلاً

من نـُوار بنت عمَّار .

- يا نورا ..

- ماذا تريدان ؟

- لا شيء .. كلٌّ ما في الأمر أن هذا الرجل

كان صديقاً لأبيك في دمشق ، وهو يرغب

في تحيتك ..

- صديقاً لأبي في دمشق ؟

- نعم أنتِ لا تذكرين ذلك . لأنك كنتِ

يومئذ طفلة ..

- ربما ..

- عمي مساءً ..

- BUENAS NOCHES

قرطبة 1955/8/12

- 5 -

القُـرْطُ الطويلْ

في أذن آناليزا دونـاليا

دمعة تركت الأذنَ منذ قرون

ولم تصل إلى مرفأ الكتف بعدْ ..

هذا القرط الطويلْ ..

وكلُّ قرط طويلْ ..

في أذن كلِّ سيدة إسبانية

محاولـة مستميتة

للوصول إلى مقلع الضوء

على الكتفينْ ..

*

يا قُـرْطَ آناليزا دوناليا

لا وصلتَ أبداً إلى مشتهاكْ

ولا انتهتْ رحلتك ..

لأنْ تعيش بوهم الكتف

خيرٌ ألف مرة ..

من أن تدفن طموحك في رخامها ..

يا قُـرْطَ آناليزا دوناليا ..

يا جوعَ الضوء إلى الضوءْ ..

قلبي معكْ ..

إشبيلية 1955/8/15

- 6 -

في أزقـــَّـة قرطبة الضيقة ..

مددتُ يدي إلى جيبي

أكثر من مرة ..

لأخرج مفتاحَ بيتنا في دمشقْ .

أحواضُ الشمشيرْ ..

واللـَـيْلـَـكْ ..

والقرطاسيا ..

البِرْكةُ الوسطى ..

عينُ الدار الزرقاءْ ..

الياسمينُ الزاحف ..

على أكتاف المخادع ..

وعلى أكتافنا ..

النافورةُ الذهبية ..

طفلة البيت المدلَّـلة

التي لا تنشف لها حنجرة ..

والقاعاتُ الظليلة

أواني الرطوبة .. ومخبؤها ..

كل هذه الدنيا المطيَّـبة

التي حضنتْ طفولتي في دمشق ..

وجدتــُها هنا ..

*

فيا سيِّدتي ،

المتكئة على نافذتها الخشبية ..

لا تراعي ،

إذا غسلتُ يدي في بِـرْكَتكِ الصغيرة ..

وقطفتُ واحدةً من ياسميناتك ..

ثم صعدتُ الدرج .. إلى حجرة صغيرة ..

حجرةٍ شرقية .. مطعَّمة بالصدف ..

تتسلق شبابيكَها الشمسُ .. ولا تسألْ ..

ويتسلق أستارَها الليلكُ .. ولا يسألْ ..

حجرةٍ شرقيةٍ ..

كانت أمي تنصب فيها سريري ..

قرطبة 1955/8/18

معركة اليمين واليسار في شعرنا العربي

أتساءلُ ، وملفٌّ قضية الشعر العربي بين يديّ ، هل يحق لي أن أمد أصابعي إلى هذا الهرم المنحوت من حجارة الأعين ، ومن ورق الورد ورفيف الأحلام .

فأنا ، كشاعر ، جزء من القضية التي كلفت النظر فيها . فكيف ألبس ثوب القاضي وثوب المتهم في آن واحد ؟ كيف أفصل في معركة أنا بعض وهجها ودخانها ؟

هل أستطيع أن أكون موضوعياً إزاء موضوع اشتبك بلحمي وأنسجتي كما تشتبك خيوط الصوف بين يديْ قطة لاهية .

إن الموضوعية المطلقة في الأدب شيء مستحيل . ولا يمكنني أن أتصور الناقد أنبوباً في مختبر أو عدسة في مجهر لا تنفعل بما ينطبع عليها من خطوط وظلال . لا بد لنا أن نحبَّ أو أن نكره . أن نقبل هذه اللوحة أو أن

نرفضها ، أن نبارك هذه القصيدة أو نلعنها . أما الوقوف في منتصف الطريق ، كأجزاء سيارة مفككة ، مختبئين وراء قناع موضوعيتنا فهو إلغاء لإنسانيتنا وحرية اختيارنا ، وهبوط بنا إلى مستوى الحجارة والطحالب .

وأنا في هذا البحث عن الشعر أرفض أن أصبح حجراً أو طحلباً . أرفض أن أكون أنبوباً في مختبر لا يتذوق نكهة القصائد ولا يشم رائحتها . أرفض أن أبقي في (المنطقة الحرام) التي لا تعرف أن تحبَّ ولا تعرف أن تكره .

موضوعي هو معركة اليمين واليسار في الشعر العربي . واحتكاك اليمين باليسار أمر حتمي في كل مجتمع صحيح البنية ومعافى . المجتمع المريض وحده هو الذي لا تشتبك كريَّاته الحمراء والبيضاء في صراع شريف من أجل الحقيقة .

ما هو اليمين في شعرنا المعاصر ومن هم اليمينيون ؟

اليمين هو الجانب الوقور الهادئ الذي يؤمن بقداسة القديم ، ويقيم له الطقوس ويحرق له البخور . إنه

الجانب الذي ارتبط ذهنياً ونفسياً ووراثياً بنماذج من القول والتعبير يعتبرها نهائية وصالحة لكل زمان ومكان ويرفض أي تعديل لها أو مساس بها .

واليمينيون من شعرائنا هم تلك الفئة التي لا تزال ترى في (المعلقة) وفي (القصيدة العصماء) ذروة الكمال الأدبي وغاية الغايات .

والقصيدة لديهم هي الوعاء التاريخي الذي يتسع لكل ما يسكب فيه ، والثوب الجاهز لكل القامات ولكل الهامات . وهي لديهم قدر محتوم لا نملك له دفعاً ولا رداً .

في مواجهة القديم المتعصب لحوليّاته وألفيّاته ، يقف جيل اليسار بكل طفولته ونزقه وجنونه . إنه جيل مفتوح الرئتين للهواء النظيف ، مبهور بهذه التيارات الفكرية الجديدة تهبُّ عليه من كل مكان فتعلمه أن يثور ، وأن يرفض ، وأن يحفر بأظافره قدراً جديداً . إنه جيل يقرأ التاريخ ولكنه يرفض أن يبتلعه ضريح التاريخ .

هندسة القصيدة العربية

جيل اليسار يعتقد أن القصيدة التقليدية كما ورثناها ، بأغراضها المعروفة ، وأبياتها الملتصقة ببعضها إلتصاقاً صنعياً كقطع الفسيفساء ، هي إلى الزخرف والنقش أقرب منها إلى العمل الأدبي المتماسك الملتحم كقطعة النسيج .

كما أن أسلوب بنائها يشابه بناء القلاع في القرون الوسطى ..مرمر .. ورخام .. وشموخ أعمدة . أما القصيدة الحديثة فهي أشبه بديكور حجرة صغيرة وزعت مقاعدها ولوحاتها وأوانيها بشكل ربما لا يوحي بالثراء الفاحش ولكنه يوحي بالدفء والإلفة .

القصيدة التقليدية لون من الريبورتاج السريع يجمع فيه الشاعر كلَّ ما يخطر بباله من شؤون الحب والحياة والموت والسياسة والحكمة والأخلاق والدين . كلُّ هذا يعرضه الشاعر بخطوط متوازية لا تلتقي أبداً .

القصيدة التقليدية مجموعة أحجار ملونة مرمية على بساط ، تستطيع أن تزحزح أي حجر

منها إلى أية جهة تريد . ومع ذلك تبقى الأحجار أحجاراً والقصيدة قصيدة .

هندسة القصيدة التقليدية هندسة مسطحة تعتمد على الخطوط الأفقية وعلى التقابل والتناظر في حين أن هندسة القصيدة الأوربية هندسة فراغية تعتمد على البعد الثالث . فالبيت في القصيدة الأوروبية ليس عالماً قائماً بذاته كما في القصيدة العربية .إنه خليَّة حية تعيش بين مجموعة خلايا في كيان عضوي واحد لذلك كان حذف بيت في القصيدة الأوروبية معناه تعطيل خلية عن أداء وظيفتها .

والقصيدة الأوروبية بعد ذلك تنمو نمواً داخلياً متدرجاً حتى تصل إلى نقطة التجمع الأخيرة كما تصب الروافد الصغيرة في النهر الكبير ، وكما تأخذ النغمات بأذرع بعضها لتشكل السمفونية الهادرة .

تخطيط القصيدة العربية

إن القصيدة العربية ليس لها مخطط . والشاعر العربي هو صياد مصادفات من الطراز الأول فهو ينتقل من

وصف سيفه .. إلى ثغر حبيبته ، ويقفز من سرج حصانه إلى حضن الخليفة بخفة بهلوان . وما دامت القافية مواتية والمنبر مريحاً فكل موضوع هو موضوعه ، وكل ميدان هو فارسه .. من حطين إلى اليرموك إلى القدس إلى الجزائر .. إلى آخر هذا الفلم الإخباري الذي يعرضه علينا شعراء اليمين كما تعرض على الجمهور البسيط أفلام رعاة البقر فلا تتجاوز الإثارة سطح جلده .

في هذه النقطة بالذات يتفوق اليمين على اليسار أو هكذا يخيل إلينا . فالفخامة والجزالة وتساقط الحروف العربية وتكسّرها يحقق لها نجاحاً منبرياً أكيداً ، لأن جمهورنا ورث مع ما ورث غريزة التطريب ، وحسّه الموسيقي مرتبط تاريخياً بالآلات ذات الوتر الواحد وبالأدوار الشرقية التي تعتمد على النغمة الواحدة بشكل دوري .

أما الشاعر العربي الحديث فلا يحاول استعمال طريقة التخدير الموضعي هذه ولا يلجأ إليها .إن اللغة لديه ليست غاية بحد ذاتها ولكنها مفاتيح إلى عوالم أرحب وأبعد . وقيمة الحروف تكون بقدر ما تثيره حولها من رؤى وظلال وتبعثه من إيحاءات .

إن البناء الموسيقي في قصيدة الشاعر الحديث مركب من فلذات نغمية تعلو وتخفت ، وتصطدم وتتفرق ، وترق وتقسو ، وتهدأ وتنفعل .ويتولد من هذه الحركة الدائمة لذرّات القصيدة موسيقى داخلية هي إلى البناء السمفوني أقرب منها إلى دقّات الساعة الرتيبة .

إن ثورة اليسار على ناحية الشكل في القصيدة التقليدية لا تعني أبداً رغبة اليساريين ،أو المعتدلين منهم على الأقل ، في إلغاء هذا الشكل أو حذفه . إن وعيهم التاريخي والجمالي لطبيعة الشعر عامة ولطبيعة القصيدة العربية خاصة وظروف نشأتها وتكوّنها ، يمنعهم من التطرف والمغالاة .

إنهم يؤمنون أن الإنسان هو الذي يصنع قوالبه وليست القوالب هي التي تصنع الإنسان . وليس في الفن أشكال نهائية أو أبدية . فالأثواب الجاهزة لا تطيقها أجساد الموهوبين وكل موهوب يختار الثوب الذي يستريح فيه.

إنسان اليسار يرفض أن يضع أفكاره في قوالب كلسية جاهزة . وهو يرى أن البيان والبديع والطباق والجناس

وما يتصل بها من فسيفساء لغوية ليست سوى (حذاء صيني) أعاق الفكر العربي قروناً عن النمو والحركة .

مأساة القافية

إن اليسار لا يطالب أبداً بإلغاء الأثواب الفضفاضة في شعرنا ، لأنه يعرف أن التخلي عن أثوابنا القديمة معناه العري الأدبي التام . ولكنه يطالب بتعديل هذه الأثواب بشكل يجعلها عصرية .. وعملية .. ومريحة .

إنني أستعمل هنا كلمة (مريحة) لأنها الكلمة الأصلح لما أريد التعبير عنه ، إذ لا شاعر عربي - مهما كان مجيداً - يستطيع أن يدعي أن جميع قوافيه مستريحة وأنه دائماً في أحسن حالاته . فالقافية - برغم كل سحرها وإثارتها - نهاية يقف عندها خيال الشاعر لاهثاً . إنها اللافتة الحمراء التي تصرخ بالشاعر (قف) حين يكون في ذروة اندفاعه وانسيابه ، فتقطع أنفاسه ، وتسكب الثلج على وقوده المشتعل ، وتضطره إلى بدء الشوط من جديد .

والبدء من جديد معناه الدخول ـ بعد الصدمة ـ في مرحلة اليقظة أي مرحلة النثر . وبتكرر الصدمات تصبح أبيات القصيدة عوالم نائية وطوابق مستقلة في بناية شاهقة .

هذه الطريقة في عمارة القصيدة العربية جعلتها قصيدة بيت واحد ، نستعمله في حديثنا حكمة مرسلة ، ونعلقه على جدران بيوتنا مكتوباً بماء الذهب .

وليس (بيت القصيد) كما عرفناه سوى ذلك البيت من القصيدة الذي كتبه الشاعر وهو في لحظة انسيابه الحر ، أي قبل اصطدامه بأي حاجز مصطنع .

وربما كانت ظروف الشاعر العربي القديم وحياته غير المستقرة ، وعدم توفر أدوات الكتابة بين يديه هي التي جعلت فنه مخزوناً في طرف لسانه ، واضطرته إلى الإيجاز والتركيز وتضمين فلسفته وعواطفه ونظرته إلى الوجود في بيت شعر مكثف يسهل حفظه وروايته .

نحو معادلات موسيقية جديدة للشعر العربى

الشعر هندسة حروف وأصوات نعمِّر بها في نفوس الآخرين عالماً يشابه عالمنا الداخلي .

والشعراء مهندسون لكل واحد منهم طريقته في بناء الحروف وتعميرها . فالحجر متوفر للجميع ولكن القلة من الموهوبين هي التي تعرف أين تضعه وكيف تضعه .

وبالرغم من اعترافنا بوجود قواعد أساسية للفن الهندسي ، فإن حرية المهندس تبقى لا حدود لها . وهي التي تتيح له في كل لحظة أن يحذف ويضيف ويعدّل في تفاصيل مخططه حتى يقتنع بكماله الفني .

معنى هذا أن هندسة القصيدة – أي وضع سلَّمها الموسيقي – عمل مترابط أعمق الارتباط بحرية الشاعر ومهارته ومعرفته بكيمياء اللفظة . ومعنى هذا أيضاً أن موسيقى الشعر ليست مخطوطة كلاسيكية محفوظة في متحف ، لا يسمح لنا بلمسها أو بإخراجها إخراجاً جديداً وبتوزيع جديد .

إن بحور الشعر العربي الستة عشر ، بتعدد قراراتها وتفاوت نغماتها هي ثروة موسيقية ثمينة بين أيدينا ، وبإمكاننا أن نتخذها نقطة انطلاق لكتابة معادلات موسيقية جديدة في شعرنا .

إن ذوقنا الموسيقي تطوّر ونما وتأثر إلى حد بعيد بالبناء السمفوني المركب في الموسيقى الأوروبية ، وبالأصوات الحادة المتمزقة التي نسمعها كل يوم كموسيقى الجاز والبوق والصنوج النحاسية .

لقد تجاوزنا مرحلة (ربابة الراعي) بإيقاعها البدائي البسيط إلى مرحلة البناء الموسيقي المتداخل ، وانتهت في حياتنا مرحلة (القصيدة العصماء) بأبياتها المئة ، تجلد أعصابنا بقواف نحاسية مرصوصة كأسنان المشط ... نعرفها قبل أن نعرفها .

الشعر العربي الحديث يُسمع بالعين ، أي أنه موسيقى مقروءة . وهذا دليل آخر على دخوله مرحلة التحضر ..

اليسار ولغة الشعر

الشعر هو همسُ الإنسان للإنسان .هذه هي حقيقة الشعر منذ هوميروس إلى فاليري .

إذن فالشعر أداة نقل راقية بين الهامس والمهموس له . أداة تصلنا بالآخرين وتوحدنا معهم .

ووسيلة الشعر إلى الناس هي اللغة ، وهذا يقودنا إلى طرح السؤال التالي : هل هناك لغة شعرية ؟ هل هناك حدود بين لغة نستعملها لكتابة القصيدة ، ولغة نستعملها لكتابة الرواية أو المقال ؟

أنا شخصياً أرفض تقسيم اللغة إلى مناطق جغرافية ومناخات . فاللغة هي هواء مشاع يتنفسه الجميع ونقد موحَّد مطروح في كل يد .

وإذا كانت اللغة هي الحجارة التي نبني بها أفكارنا فإن الشعر هو ذلك الفن الهندسي الذي يحول الحجارة إلى قصور كقصور ألف ليلة وليلة .

كل الكلمات بلا استثناء هي موضوع للشعر . والفن الشعري هو ذلك الساحر الذي يحول النحاس إلى ذهب ويقلب التراب إلى ضوء .

إن اليمين متعصب للغة (الأغاني) و (العقد الفريد) ولديه عن البلاغة والفصاحة مفهوم لا يقبل أن يتزحزح عنه . لذلك فهو ينظر باستخفاف إلى كل إنتاج جديد ويعتبره مثالاً للضعف والركاكة .

أما اليسار فهو يؤمن بأن لغة الحديث اليومي ، بكل حرارتها وزخمها وتوترها ، هي لغة الشعر وأن الكلمة الشعرية هي الكلمة التي تعيش بيننا .. في بيوتنا .. وحوانيتنا .. ومقاهينا لا الكلمة المدفونة في أحشاء القاموس .

لقد نزل الشعر – نتيجة للمد الاشتراكي والماركسي – عن أرستقراطيته ولم يعد متاع النبلاء ولهو الخلفاء .

لم يعد الشعر كأس ذهب في يد أمير بل أصبح قطعة من خبز في فم جائع للخبز والحرية .

ونحن إذا نادينا بشعر هامس كلغة الحديث اليومي ، فهذا لا يعني بالطبع الهبوط به إلى ظلمات الأزقة ومستنقع العامية . كل ما نطلبه أن يكون شعرنا في المرحلة الثقافية التي نحن فيها صورة لهذه الثقافة وانعكاساً لها .

إن لغة المثقفين في جميع البلاد العربية هي القاسم المشترك الصحيح والمادة الأولية التي يجب أن نستعملها في كل ما نكتب من شعر أو قصة أو نقد أو مقالة .

قد لا تكون هذه اللغة أكاديمية مئة بالمئة .. وقد لا تكون معجمية مئة بالمئة .. ولكنها على كل حال تشبهنا . إنها جزء من شفاهنا .. من حناجرنا .. من كتبنا .. من جرائدنا .. من رسائلنا .. إنها اللغة التي نحبُّ بها .. ونضحك بها .. ونبكي بها .. ونمشِّط شعر حبيباتنا بها ..

محتوى القصيدة العربية الحديثة

إذا فرغنا من مناقشة قضية البناء الخارجي في القصيدة العربية كان علينا أن نناقش محتواها الداخلي . فهل هناك محتوى جديد للقصيدة العربية الحديثة ، وما هي قيمة هذا المحتوى ؟

مما لا شك فيه أن خريطة العالم تنكمش وتضيق ، وحدود الدول تذوب وتسقط ككتل الثلج . والعلم الحديث جعل سفر الأشخاص والأفكار بين قارة وقارة وكوكب وكوكب ، نزهة يومية لا تثير الدهشة . والأدب هو أكثر الكائنات قدرة على السفر والرحيل ، فهو روح سريع التبخر ، سريع .. الاشتعال .

لذلك لم يعد بوسع أي أدب أن ينعزل بين جدران إقليمية ضيقة ، ويدفن رأسه في رمال اللامبالاة ، وإلا صنف في عداد الآداب الميتة .

في وسط هذه الحضارة الطموح يبحث الشعر العربي الحديث عن نفسه . ومن حسنات هذا الشعر أنه مفتوح العينين على الأبعاد الإنسانية الرحبة ، وشديد الحساسية بتموجات الفكر العالمي وذبذباته . فكل بذور حملتها أمواج البحر المتوسط إلينا أخصبت في ترابنا وأعطت زهراً وورقا ..

كل الفلسفات ، وكل النزعات ، وكل المدارس ، سواء منها الغربية أو الشرقية ، البورجوازية أو الماركسية . تصادمت في منطقتنا ثم انسحبت تاركة على أرضنا مزقاً من راياتها ..

طاغور وغوته وشكسبير وده موسه ومالارميه وفاليري وآراغون ورامبو ولوركا وبول ايلوار وآخر العنقود . س . ايليوت ، كل هؤلاء مرّوا من هنا .. ورحلوا عن هنا .. بعد أن خلفوا على فجر شعرنا بعضاً من أنفاسهم ..

الإلتزام ، ابن الماركسية المدلل ، مرَّ برؤوسنا في أوائل الخمسينات مرور الدوار المباغت فحول شعرنا إلى (مانفيستو عقائدي) واستنبت القصائد من مخيلة

الشعراء الملتزمين كما تستنبت البطاطس في أحد الكولخوزات . ثم انكفأ الالتزام عن شواطئنا تاركاً وراءه طروحاً شعرية عن (ديان بيان فو) و(كوريا) ولدت بدون عظام وبدون ملامح .

ثم دقَّت الوجودية السارترية أبواب أدبنا بعنف . واستطاع سارتر وكامو وكافكا وكولن ويلسن أن ينقلوا عوارض الغثيان والسرطان إلينا . وأصبح (اللامنتمي) بجنونه وضياعه وبلاهته وشعره المنكوش ، البطل الرئيسي في كل عمل أدبي نصنعه ، وملح الطعام على مائدة شعرائنا ..

وفي رأيي أن أزمة العبث والعدم واللاجدوى هي أزمة نفسية مستوردة لها ما يفسرها في الحضارة الأوربية المتعبة . أما نحن فقد نقلناها بدون تحفظ ودون أن يكون في حياتنا ما يبررها . فالقرف الذي يطغى على آثارنا الأدبية ليس (قرفاً عربياً) وإنما هو قرف صنع في فرنسا .. وانتقلت إلينا جراثيمه بالعدوى .

إنني لا أنكر أن الإنسانية كلها تعاني أزمة مصير وأن جيلنا هو جيل الغبار الذري ، والهواء الملوث ، والعقد

الفرويدية ، الجيل المصلوب بلا صلب ، المشوه من داخله منذ ولادته .

إنني أعرف هذا ، ولكنني أعرف أيضاً أن للإنسان العربي أزماته الخاصة ، أزمات واقعية تتصل بالرغيف ، وبالدواء وبالعلم وبسرطان إسرائيل ، أكثر مما تتصل بالمجردات الفلسفية التي لا تلتفت إليها الشعوب إلا وهي في قمة شبعها وبطرها الفكري .

ولا يمكننا ونحن نستعرض رياح الفكر العالمي التي هبَّت علينا ، أن نهمل التجربة الاليوتية ، نسبة إلى الشاعر الأمريكي الأصل ت . س . اليوت الذي ترك على نتاج أكثر شعرائنا المعاصرين ولا سيما شعراء العراق ومصر بصمات أصابعه واضحة . فقد نقلوا عنه وعن معلمه أزرا باوند طريقتهما في كتابة الشعر الحر وفي استعمال الأساطير والرموز الدينية والتاريخية والاعتماد على طريق التداعي بالصور (ايماجيسم) .

ويقتضينا الإنصاف أن نقرر أن نتائج التجربة الاليوتية في شعرنا كانت حسنة بمجملها . فقد حقق بعض الموهوبين بقصائدهم الحرة نجاحات ملحوظة ، حين منحوا القصيدة العربية المعاصرة ما كان ينقصها أي

وحدة الشكل والموضوع . وأصبحت القصيدة العربية على أيديهم كياناً عضوياً ملتحم النسيج يتغذى بموسيقى داخلية مركبَّة الإيقاع متعددة النغمات ، كما أصبح للقصيدة الحديثة نواة أساسية ومحور تتحرك عليه من بدايتها إلى نهايتها ، وهذا في نظري أكبر نصر يسجل للقصيدة العربية الحديثة .

وإذا كانت السهولة الظاهرية لطريقة الشعر الحر قد شجعت كثيراً من الدخلاء على الإدلاء بدلوهم في هذه البئر ، وعلى ظهور كثير من النتائج الرديئة أساءت إلى سمعة الشعر الحر وإلى شعرائه ، فإن هذا يجب أن لا يتخذ ذريعة لمهاجمة الشعر الحديث بمجموعه ، ففي كل فن يوجد موهوبون ويوجد مزيفون . وفي الشعر التقليدي نفسه يوجد نسور تغطي أجنحتها وجه الشمس ، ويوجد هوام أجبن من أن يطير في وجه الشمس .

الشعر العربي الحديث يخوض بكل طاقاته وأعصابه تجربة كبرى في التجديد ، فلنمنحه الفرصة لإثبات وجوده .

1962

الله .. والشعر

الإنسان حيوان يقول شعراً . يتذوق شعراً .

هكذا يطيب لي أن أعرف الإنسان كما لم يُعرَّف من قبل .

فكرة صغيرة أغامر وأضعها على الورق ، وتسمية جديدة أرجو أن ترد للإنسان بعض اعتباره ، وتضعه حيث يجب أن يكون.

أن نعرِّف الإنسان بأنه ناطق أو بأنه ضاحك ، إبقاء لهذا الإنسان فى مرحلته الترابية وتمييز له عن القطيع الحيواني ببعض الخصائص العضلية الفيزيولوجية ككونه ينطق ... أو يضحك .

أما أن نربط حقيقة الإنسان بالشعر فتصعيد بقضية الإنسان وتجديد لهويته .

الإنسان كائن يكتب شعراً . وبتعبير آخر ، كائن حريص على أن يعبر عن ذاته تعبيراً ممتازاً . أن يقدم نفسه في إطار نبيل .

المفتاح إلى قلب الحبيبة ـ كل حبيبة ـ سواء كانت سوداء تنبعث من بشرتها رائحة المانغو والبهار .. ويختصر صدرها اليابس تمرد قارة .. طموح قارة .. أم واحدة من مواطنات جزر الهاواي المكتسيات حيناً باللاشيء .. وحيناً بحشائش البحر .. وأطواق زهر الغاردينيا .. أو كانت سويدية شقراء من ماردات الشمال . المفتاح أغنية حب جميلة تغنى تحت شرفتها ..

الشعر هو كلمة السر . من عرف متى يقولها وكيف يقولها ، استطاع أن يزحزح الصخرة المسحورة ويصل إلى صناديق اللؤلؤ والمرجان ، وإلى الحور المقصورات في الجنان.

منذ أن دار هذا الكوكب المتحضر حول نفسه كان الشعر . أي منذ أن امتدت يد أول إنسان إلى أول زهرة برية ليحملها إلى الأنثى التى كانت تنتظره فى مخبئه الحجري وليقول لها :

" لم أصطد اليوم لطعامنا شيئاً .. وإنما حملت لك هذا الكائن الجميل الذي وجدته مختبئاً في شقوق صخرة . إنه يشبه انفتاح فمك يا حبيبتي .. "

هذه أول هدية جمال في تاريخ الهدايا ، أول سطر في كتاب علم الجمال . أول حرف في أول ديوان شعر.

أكيد أن الإنسان وحده يملك نزعة تذوق الجميل والتعبير عن هذا الجميل . فالحيوان لا يهتم بالنجوم . ولا يعنى بروعة المغارب ولازوردها السائل ، ولا يلتفت إلى الزهرة ولا يحملها إلى مسكنه ولا يتزين بها . وإذا اهتم بالزهرة فلكي يأكلها ويشرب عصيرها كما تفعل النحلة .

إلى هذه النقطة أريد أن أصل لأؤكد انفراد الإنسان عن سواه من الكائنات الحية بالتذوق الذهني المجرد عن كل نفع ، أو بتعبير آخر بالقدرة على التفريق بين (الجميل) و (النافع) . فهو بين أفراد فصيلته الوحيد الذي يقيم المتاحف .. وينحت الحجر ، ويطرز جدران بيته بالرسوم ، ويملأ أوانيه بالورد الجميل لأنه (جميل) .

إن المقياس الصحيح لحضارة شعب هو قدرته على التطلع البريء إلى جمالية الأشياء ومحافظته على الحياد الذهني . الشعب المتحضر لا يتاجر بالجميل ولا يستغله .

إذن فأنا أبشر بالإنسان الشعر . إنني لا أخترع هذا الإنسان ، فهو هنا .. وهناك ، إنه فى كل واحد منكم . هو أمامي على كل هدب وشفة .

الإنسان الرقم لم يستطع أن يقتل الإنسان الشعر . لا تصدقوا من يقول لكم إن الشعر قد أضاع قضيته وإنه انتهى . الشعر لا ينتهي إلا إذا انتهت الحياة نفسها على هذا الكوكب الدائر ، ونشفت البحار وانطفأت الكواكب .

أما ما دام هناك مغارب تسفح العقيق ، وبحار تغزل الزرقة ، ونجوم تهرب من خيمتها لترقد على مخدتي .
ما دام هناك عيون سوداء يبحث الليل فيها عن نفسه ،
ما دام هناك مشاوير لم تـُمْشَ ، ومواعيد لم تـُعْطَ ..
ما دام هناك رياح تثور .. وشموس تدور .. ونجوم مفروطة عناقيد نور .. ما دام الإنسان السؤال منتصباً على وجه هذه الأرض ، يحب ويكره ، ويصلي ويسكر ، ويبكي ويضحك ، ويؤمن ويكفر ، ما دام هناك عِقـْدٌ واحد في جوارير حبيبتي لم أكتشف لون حباته . ما دام في خزانتها ثوب واحد لم يره فضولي بعد .. فلا فرار من الشعر ولا انفلات من أصابعه الساحرة ..

قلت لكم إن الشعر هو كلمة السر . وأمامه تنفتح الأبواب ، كل الأبواب .

حين أراد الله أن يتصل بالإنسان لجأ إلى الشعر ، إلى النغم المسكوب ، والحرف الجميل ، والفاصلة الأنيقة . كان بوسعه أن يستعمل سلطته كرب فيقول للإنسان (كن مؤمناً بي .. فيكون) ولكنه لم يفعل . اختار الطريق الأجمل .. اختار الأسلوب الأنبل .. اختار الشعر :

" .. واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت

" من أهلها مكاناً شرقيا .

" فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها

" روحنا فتمثل لها بشراً سويا .

" قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت

" تقيا .

" قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك

" غلاماً ذكيا .

" قالت أنـــّى يكون لي غلام ولم يمسسني

" بشرٌ ولم أكُ بغيا .

" قال كذلك قال ربك هو عليَّ هين

" ولنجعله آيةً للناس ورحمة وكان أمراً

" مقضيا .

" فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا .

" فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت

" يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسيا .

" فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل

" ربك تحتك سريا .

" وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك

" رطباً جنيا .

" فكلي واشربي وقري عيناً فإما ترين

" من البشر أحداً فقولي إني نذرت

" للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا .

" فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد

" جئت شيئاً فريا .

" يا أخت هارون ما كان أبوكِ امرأ سَوْءٍ

" وما كانت أمك بغيا .

" فأشارت إليه ، قالوا كيف نكلِّم من كان

" في المهد صبيا .

" قال إني عبد الله آتانيَ الكتاب وجعلني

" نبيا .

" وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني

" بالصلاة والزكاة ما دمت حيا .

" وبَــرًّ اً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا .

" والسلام عليَّ يوم ولدتُ ويوم أموتُ

" ويوم أبعث حيا .

هذه واحدة من قصائد الله . هل أدلكم على قصائد أخرى ؟

إذن فافتحوا الأناجيل .. اقرأوا المزامير .. لتروا كيف تسيل حنجرة الله بالشعر .. لتروا كيف تشفّ الكلمة حتى لتكاد أن تطير .. لتروا كيف يجلس الله على مسند حرف .

والإنسان ، هذه الكتلة المفكرة من الطين ، لم يجد أجدى من الشعر في التقرب من خالقه . القصائد المحفورة على جدران المعابد في ذرى التيبت ، في مجاهل الصين ، في صوامع الأقصر ، في هياكل أثينا ، وفي أديرة الشاطيء الفينيقي تشير إلى قدرة الشعر على فتح أبواب السماء .

ولكن لماذا أذهب بعيداً ؟ ألم يكن أجدادنا في بوادي الحجاز يعلقون القصائد على جدران الكعبة على مستوى واحدة مع اللاة والعزى ، فيعبدون اللاة مرة .. ويعبدون الشعر مرات ..

الشعر يمد يده إلى الأشياء فيحييها كما فعل موسى تماماً . والفارق الوحيد أن أداة موسى هي العصا .. وأداة الشعر هي الكلمة ..

الحجارة في أرض الحجاز كانت بقيت حجارة ، لو لم يمسحها الشعر العربي بأنامله المنعشة ، فيكسو كل حجر غلالة شوق ... ويسقي كل ذرة رمل من حمرة جرح .. من شرايين موعد :

ولقد مررتُ علـــــى ديارهمُ

وطلولها بيـــد البلى نـَهـْبُ

وتلفتتْ عيني فمذ خـَفيـــتْ

عني الطلولُ ، تلفـَّـتَ القلبُ

هكذا يعيش الحجر ، هكذا يكتسي ورقاً وبراعم .. وهكذا يصبح التراب سماءً .

والأشياء الصغيرة .. الصغيرة التي تمتلكها حبيبتي . قواريرها ، عطورها ، مروحتها ، أمشاطها ، ثوبها الجديد المنقول عن شجيرة درَّاق مزهرة .. كل هذه الأشياء ماذا تكون لو لم أصبغها بدمي .. ودم قصائدي ؟

وعينا من أحب . هذان المصباحان الأخضران اللذان يشتعلان ويشعلان حياتي ، ماذا يكون مصيرهما بغير شعر ، بغير أغنية تسقيهما ..

إلى هنا ونحن نطوف حول جزيرة الشعر وخارج أسوارها . فما هو الشعر ؟ ما هي هذه الجزيرة القزحية الأحجار ..

لا يهم أبداً أن نعرف ما هو الشعر . إذ خير للوردة الجميلة أن لا تكتب مذكراتها . وماذا يضير الوردة إذا جهل الناس تاريخ حياتها ؟ الجميل لا تاريخ له . هو نفسه تاريخ . تاريخ التاريخ إذا شئتم .

إني هنا لأعطيكم شعراً . لنمزق معاً أسوار الهنيهة المحدودة . لنبني زماناً شعرياً أرحب وأغنى .

الزمان الشعري الذي نعيشه معاً أجمل من كل زمان . زمان لا يدخل في حساب الساعة والتقاويم ، ولا يستند إلى مطالع الأهلة والنجوم . الزمان الشعري يصنع نجومه وأقماره بيديه .

هل أحدثكم عن الزمان الشعري ؟ إنه زمان غير قياسي ، غير منطقي ، غير عددي . ثوانيه أعرض من دهور ، وهنيهاته أطول من مدات العتابا على ذرى بلادي .

الزمان الشعري الذي ألح على وجوده إلحاحي على وجودي لا صلة له بزمان الناس . بمواسمهم ، بفصولهم ، بأعيادهم ، بآحادهم . الأحد الذي ألاقي فيه وجه الحبيبة محط زمني تحط عليه الدنيا لتدفأ وتستريح . وهو أحد واحد . أحدي أنا . ولا سبيل إلى مقارنته بأحد أي إنسان آخر .. لأن له شخصيته وهويته .

الزمان الشعري يتصرف بالزمان العددي كما يريد . يخلقه ، يغيره ، يمحوه ، يوقفه بقدرة قادر .

يكفي أن نفتح ديوان شعر لنرى كيف تمد زهرة التوليب رأسها في غير موسمها ، كيف ينهمر الثلج من أصابع تموز ، وتختلج أجنحة السنونو في تشرين .. كيف يستيقظ الطيب في مخدع الحبيبة وفي أشيائها التريكة ، كيف ينهض التاريخ كله بناره ورماده في صورة وشاح مهجور ، أو رسالة نائمة كالجرح المغلق . كيف تتدحرج الأمسيات من بؤبؤ عين إسبانية لتغرقك في ليل مطعَّم بضوء .. وضوء مطعَّم بليل ، حتى لتحار أين يبتدئ الليل وأين ينتهي النهار .

1957

لماذا أقرأ شعري ؟

دعوة الشاعر إلى قراءة شعره،نوع من النزيف الروحي العنيف .. يتعب الشاعر ويريحه في آن واحد. هي فتح ثقب صغير في خزان الوقود قبل أن ينفجر .. هي نزع الختم عن زجاجة خمر مات صبرها .. هي تجريد شجرة الكرز من كل أقمارها الحمراء وكل فوانيسها المشتعلة .

وأنا أحب نزيفي .ألتذُ بطعم دمي السائل .أعانق جرحي وألثمه ،وأرجوه أن لا يغلق فمه .

الشعر عافيتي ومرضي ، مولدي ومقتلي ، ضلالي وتوبتي .

الشعر خنجر ذهبي مدفون في لحمي .أكره أن يتركني ، ولا أكره أن يذبحني .

الشعر صليب من خشب الورد ألقي عليه ذراعيَ كما ألقيهما على كتف حبيبتي ... وأتمنى لو يطول صلبي ويُقبل استشهادي .

لماذا أقرأ شعري ؟

إنني أقرؤه لأنني أريد أن أنام .لأن كلماتي كأجفان الأطفال لا بد لها أن تسترخي وتنسبل .

الشاعر نحلة حبلى بألف قطرة سُكَّر ، نحلة يتخمر في أحشائها السُكَّر ، ولا يمكن للنحلة ولا للشاعر أن يهربا من هذا الجدول السكَّري ، من غدد الجمال المخبوءة فيهما .. وإلا قتلهما عطرهما .

قَدَرُ الشمعة أن تعطينا ضوءاً .. وقَدَرُ الزهرة أن تعطينا عطراً .. وقَدَرُ المرأة الجميلة أن تتعَبَ وأن تُتعِب .. وقدر القصيدة أن تفرز الجمال حيث حطَّتْ .

الشعر إفراز جمالي . نزيف حروف ونجوم ونيسانات تتوالد من شق ريشة . وهو بعد هذا وجه الله مرسوم على بياض ورقة .. محفور في ضمير ورقة ..

قدر القصيدة أن تـُقال وأن تـُسمع . فنيسان لا يستحي بأخضره وأحمره . نيسان لا يقيم معارضه تحت الأرض .

عندما فكر الله ، الشاعر الأول والصائغ الأول ، في كتابة الشعر فكر أيضاً في وسيلة ينشر بها شعره ، وفي ناشر ينقل كلماته الحلوة إلى محبيه وعابديه .

سورة مريم ، وسورة الرحمن ، ونشيد الإنشاد ، قصائد لا أطيب ولا أعذب تتقطر ضوءاً وعبيراً بين أصابعنا ..

كل ما كتب الله من شعر موجود حولنا ومعنا .. وقصائده نقرؤها على كل نجمة وموجة وورقة خضراء .

من تجربة الله يجب أن نعرف أن الكلمة عصفور لابد له من أن يطير .. لأن الأفكار التي لا نقولها تصبح كالنقد الملغى لا قيمة لها .. والشاعر الذي يخبيء أوراقه في عتمة الجوارير ينتحر بمداد دواته .

إن المجانين وحدهم هم الذين يتغذّون بحوارهم الداخلي ويعلكون خبز أوهامهم .

الفنون بجميع أشكالها هي الجسور التي تربطنا بالآخرين ، هي السلالم الحريرية التي نتسلق عليها لنعانق الآخرين .

اللوحة بحاجة إلى من يراها . والتمثال بحاجة إلى من يلمسه ، والسمفونية بحاجة إلى من يسمعها ، أما الشعر فربما كان أكثر الفنون حاجة إلى الإنسان لأنه مشتبك بلحم الإنسان ، بفمه ، بحنجرته .

ولأن الشعر جزء من فم الإنسان أتيح له أن يتقدم - تاريخياً - على كل الفنون الأخرى . فقبل أن يتمكن الإنسان من تهذيب الحجر ، وتركيب الوتر ، استطاع أن يجد الصلة بين ليله الطويل وبين شعر حبيبته الطويل ، بين الأزهار البرية الحمراء التي كانت تسد باب مغارته وبين ثغر الأنثى التي كانت تشاركه مغارته .

يوم اكتشف الإنسان هذه الصلات الصغيرة المثيرة وُجِدَتْ أول قصيدة غزل في تاريخ هذا الكوكب ..

واليوم وقد مرت ملايين السنين على أول قصيدة حب كتبها أول إنسان ، أتساءل هل تغيرت حقيقة الشعر ،

هذا العصفور الافريقي الذي يغطّ أجنحته في ضوء القمر ؟

لا أحسب أن شيئاً قد تغير . فما زال العصفور الافريقي يتأرجح على خيطان الشمس ، ولا يزال رجل العصر الذريّ يحسّ - كرجل المغارة - بالصلة الوثيقة بين أزهار القرنفل الحمراء المنثورة على مكتبه .. وبين ثغر المرأة التي يحبّ .

1962

جانين .. والوجودية .. ومارون عبود

أستاذنا الكبير

تأخرت عن موعدك الأخضر قليلاً . كان عليَّ أن أسبق الشمس إلى ستائرك . لكن الوهج المغنِّي في معركة بورسعيد أكل أعصابي .. كلَّ أعصابي . سرق السلام من قلبي .. جبلني بحمرة جرح .. جعلني جرحاً يمشي .

فلا تؤاخذني إذا وصلت متأخراً ، لأن الكتابة إليك رحمة وسلام . واللعب بالحرف ، بالفاصلة السَكرَى ، يحتاج إلى حد أدنى من السكون ... وهذا ما لم أعرفه ولا أريد أن أعرفه .

هل نبدأ الآن ؟ هل تفتح لي قلبك ؟

يعتبر بعض الناس أنفسهم سعداء إذا وجدوا في امتداد زمني واحد مع واحد من هؤلاء العباقرة الذين أعطوا الإنسانية تراثاً لا تزال الأرض تشرب منه وتسكر ..

الذين عاشوا في عصر بيتهوفن وموزارت وليست ، والذين عاصروا تولستوي أو ليوناردو دافنشي أو غوغان أو رودان أو فان كوخ . كل هؤلاء يعتبرون أنفسهم من رفيعي الأقدار .

ويوم يجيء الدور إلينا ويسألنا سائل : وأنتم يا شعراء الفترة الممتدة من عام 1940 صعوداً إلى اليوم .. من هو هذا الكبير الذي كان يقيِّم آثاركم ، ويزن الريش النابت في أجنحتكم ، ويدوزن الأنسجة الطرية في حناجركم ؟

يوم يواجهنا سائل بمثل هذا السؤال سنقول له بدون أدنى تردد :

((كتبنا شعراً في عصر مارون عبود .. وعلى محكّ هذه السنديانة الماردة برينا أقلامنا .. وتركنا أسماءنا ..))

((سنديانة)) .. نعم وجدتُ الكلمة . سنديانة من هذه السنديانات التي تفتح زنودها لمئات العصافير الزائرة .. لا تبخل على واحد منها بخيمة ظل ، أو سرير ورق أخضر .. أو زوادة قش تحمِّله إياها قبل أن يذهب ..

من هنا ينبع مجد السنديان . مجدك يا أستاذي . يا مضيف الأجنحة المليسة الزغب ، يا حاضن الشرانق الحبلى بألف خيط حرير ، يا مالئاً مناقير العصافير الهابطة إليك زهراً .. ورمَّاناً .. وحبَّات كرز ..

قلَّ أن عرف الأدب العربي ناقداً تطهَّرت ريشته من سواد الحقد .. وتبرأ قلمه من حليب الكراهية العكر .

كل معاركنا الأدبية هي أشبه بمعارك الدجاج والديكة .. ريش نافش .. ومخالب تغرز في الأعناق .. ومناقير استبدلت الغناء بالعض وفقء الأعين ..

ويظهر أننا لم نتحرر حتى اليوم من أسلوب النتف والسلخ في نقدنا . فما زال الدجاج الناقد لدينا كثيراً .. وما زالت الغرائز الدجاجية هي السلوك المميز لأكثر نقادنا . فكل أثر أدبي يدخل مختبرهم ... وكل خارج من هذا المختبر مولود ..

فإذا تحدثت اليوم عنك ، عن السنديانة التي تطعم العصافير وتظلها ، فإنما أتحدث عن أخلاقية جديدة ، عن ظاهرة غريبة في تاريخ النقد لدينا .

فلأول مرة يتحرر الحرف على يدك من رجس الشتيمة ، ليصبح أداة عبادة .. لا مطرقة حدادة ..

لأول مرة .. نعرف معنى التسامح .. معنى الغفران .. معنى (التعايش الفني) إذا جاز لي أن أستعير التعبير من قاموس السياسة ، حيث يقول بعض الساسة بين شتى النظم السياسية على تباين دروبها وغاياتها . فلماذا لا نطبق هذه النظرية في الفن ، وننادي (بتعايش فني) تعيش فيه المذاهب الفنية على تباينها جنباً إلى جنب ، حتى يتولى الزمان أمر الفصل في هذه المذاهب وتقييمها .

*

أستاذنا الكبير

ما قلته في شعري كرامة لشعري . حياة ثانية للحروف التي عاشت معي حياتها الأولى . لقد عاشت (قصائدي) بين يديك كما تعيش البنت المدللة في بيت أبيها .. حلوى .. وأثواب .. و (أشيا أُخَرُ) . ولكن لماذا أنت غاضب على (جانين) ؟ متمسك بالوزن والموازين ؟ (فجانين) هذه تعيش في أحد أقبية سان جرمان لا في برقة ثهمد .. إنها تلبس البنطلون .. والخفَّ المقطع .. وتلثغ بالفرنسية .. وتمزق ثوانيها وتهبها لليل ... لجحيم موسيقى الجاز .. للاشيء ..

إنها تعيش حضارة معينة . ونحن كصيَّادي صور ، لا يهمنا أن تكون الحضارة حضارة قلق وسواد وتشرّد ، أو يكون القبو الذي ترقص فيه كقبو الماعز .. كلٌّ ما يهمنا أن نرسم جانين هذه في إطارها الزماني والمكاني

.. أن نفاجئها وهي في وسط حلبة الرقص ترمي خصلة من شعرها لليل .. وخصلة لله ..

إنني أعالج بقصيدتي (وجودية) فلسفةً كاملة هي الوجودية ، وأحاول بلقطات صغيرة أن أخلق الجو لقارئ لم تقده قدماه إلى هذه الأقبية . لذلك كان لا بد من تغيير المخطط التقليدي للأداء .

كان من المستحيل عليَّ أن أكتب عن جانين ... والجاز .. والمونمارتر .. بالبحر الطويل .. أو البسيط .. لأن صلة الموضوع بإطار العرض حقيقة لا يمكن الفرار منها .

هل تريد تجربة صغيرة على ما أقول . إذن فاسمع يا معلم الذوق الجميل :

يا دار (جانين) بالعلياء فالسندِ
أقوت وطال عليها سالفُ الأمدِ ..

أعوذ بالله ، وبك ، وبكل صاحب ذوق مرهف من هذه السماجة .

البيت كما ترى مهندس وفق مخطط الأجداد ، موزون بميزان صيدلي ، مرسوم بمسطرة .. ومع هذا فهو مصيبة المصائب . لماذا ؟

لأن الخياط الذي فصل البيت فصَّـله على جسد (ميَّة) المواطنة السمراء في صحراء نجد ... فحين ألبسناه بعد ألف وثلاثمائة سنة (لجانين) المواطنة الفرنسية القاطنة في الرقم 73 بولفار سان ميشيل ... أغمي عليها .

*

قلت في مقالك القيم إن بحور الخليل هي أنغام الجدود وموسيقاهم الكلامية ، وإن القافية هي وقفة نغم على حدود اللانهاية ، كما قلت إن الخليل هو واضع النوطة الموسيقية لأهازيجنا وأغانينا .

كل هذا كلام حسن ولكن له تتمة .

لم يعبد أحد موسيقى الشعر عبادتي لها . فهي أساس البناء الشعري لدي . ولكنني لا أتصور موسيقى الشعر إرثاً أبدياً لا يأتيه الباطل من أمامه أو من خلفه . لا أتصورها حكماً من أحكام محكمة التمييز لا يقبل الطعن أو الاعتراض .

إن كون (البزق) أو (الناي) من تراث الأجداد لا يمنعني أو يمنعك من أن نطرب لآلة مستحدثة كالبيانو .. أو الكلارينيت . أو الأوبوا .. أو أن نقف موقف المتعبدين من (بولونيز) شوبان وسمفونية بيتهوفن الريفية و(بحيرة بجع) تشايكوفسكي ...

على نفس المقياس أقول : إن كون الخليل بن أحمد هو الذي وضع النوطة الموسيقية لأهازيج الأجداد ، لا يمنعني من جانبي أن أضع النوطة الموسيقية للإطار الحياتي الذي أعيش فيه . بل لا يمنع أي فنان من بلادي أن يبدع سمفونيته الخاصة فيحذف نغمة .. ويضيف نغمة .. ويعمِّر كوناً شعرياً بألف شكل وألف أسلوب .

الفن الشعري كالفن المعماري يمكن فيهما توليد أشكال لا حصر لها . فكما أن الفن المعماري يعتمد على وحدة أساسية - هي الحجر - لإخراج ألوف التصاميم ، فإن بإمكان الشعر أن يأخذ الوحدة الأساسية في بناء القصيدة العربية - أي التفعيلة - لتوليد أشكال شعرية لا نهاية لها .

هذا ما يحدث تماماً في السمفونيات العظيمة ، حيث تكون النواة فيها جملة موسيقية بسيطة ، ثم تبدأ الإضافات على النواة الأساسية ، نغمة تنادي نغمة .. وقرار يجذب قراراً .. ورعشة وتر هنا .. وشكوى كلارينيت هناك .. حتى يكتمل بناء السمفونية العام ، وتنعقد حلقاتها ، وتغدو عالماً بشموسه ، ومحيطاته ، ومجرّاته .

إنطلاقاً من هذه النقطة كتبت قصائدي التي أعجبتك : ((حبلى)) و ((خبز وحشيش وقمر)) و((سامبا)) . فهي جميعاً محاولات واضحة لتطوير النغمة الأساسية واللعب بها .

إنني لا أدعي كمال هذه الأشكال الجديدة . فلا شكل نهائي في الفن . وإنما أقول إننا نعطي الصلصال القديم

ملامح جديدة . لا تزال أيدينا في الطين .. ولا تزال أزاميلنا تبني وتكسر .. تضيف وتلغي . وربما مرَّ وقت طويل قبل أن تفرض هذه الأشكال نفسها على الذوق العربي . ولكن هذا يجب أن لا يثنينا عن إتمام المحاولة ، كما أن النقاد يجب أن لا يتعجلوا الحكم على هذه المحاولة التي لم يتجاوز عمرها بعض سنوات . لأن من هذه المحاولات ما نجح فعلاً وبدأ يجد استجابة لدى الجماهير العربية .

أستاذنا الكبير ،

أنت في تفكيرك ولقطاتك التي تشبه باتساع مداها لقطات (السينراما) شيء مدهش حقاً . والأدهش من هذا كله قدرتك الفائقة على تكييف ثقافتك العريضة وذوقك الرهيف مع اختلاف الفصول واتجاهات رياح الفكر والذوق . أما قلمك فهو أصبى من الصبا نفسه ، أحلى من دفقة العافية .

الذين وصلوا إلى سنك من أدبائنا لا يزالون في قاعات المجامع العلمية الرطبة ، يعانقون أكياس الماء الساخن ، ويشربون كؤوس البابونج ، ويتعاطون أدوية الروماتيزم .. وينظمون قصائد موسمية تجلب الروماتيزم من مسافة ألف ميل ..

أما نحن الذين عاصرناك وأحببناك ، ومسحنا مناقيرنا الصغيرة بجذعك الرحيم العظيم ، وسرقنا الحَبّ من جيوبك الممتلئة ، فما رددت منقاراً ولا آذيت جناحاً .

أما نحن فسوف نقول لمن يسألنا عن خصائص شعرنا وطابعه : ((كتبنا شعراً في عصر مارون عبود ..))

1956

أغنيـة إلى شاكر مصطفى

(مقدمة كتاب)

أفتكر، وأنـا أدير نقطة هنا وفاصلة هنـاك وأداري ثيابي من بقع الطيب يمطرني بها شاكر مصطفى، ما جدوى باب السنديان العتيق والجنينـة على مبعدة خطوتين منـه... زهرٌ... شمسٌ... وعافيـة.

ما أسعدنـي لو تجاوزنـي النـاس... لو تجاوزوا الباب الخشبي المتكئ على مفاصلـه الملحنـة... إلى حوائط تـُـبنى من عبير، إلى فسقيـة تتغرغر بـأغنيـة... إلى سحبة عتابا بدأت منذ أن كان الشوق في بلادي ولم تنته بعد...

ما أسعدنـي لو دفعتَ الباب ومشيتَ وحدك... فالطريق إلى الكـَـرْم لا تضيّع أبداً... لا تضيع أحداً ..

اتبع أول نحلة عطشى وهي تَـدُلك على عناقيد تكاد حركة السكر في أنابيبها تُـسمَع ..

أنا إذن - وورائي أكداس الأخضر والأحمر - لا أكثر من بطاقة توضع على إضمامة زهر، من لصيقة توضع على زجاجة طيب في إحدى دكاكين العطور في باريس .. من جسر ينتظر خلفه ألف موعد مطيّب، فما أسعد القارئ لو ألقى نفسه رأساً في أحضان قارورة العبق .. أعني في أحضان شاكر مصطفى.

هذا هو موعدي الأول مع شاكر، موعد على ضفة محبرة تسبح في موجها الأسود حياته وحياتي .. موعد على حضن حرف . فما أحلاك يا شاكر ورائحة الحبر تهب من قميصك هبات تتمنى معها الليلكة لو أصبحت دواة ..

هل أدركت الآن موقفي في زحمة العناقيد ؟.

إنني لا أستطيع أن أضيف قشة صغيرة .. قشة واحدة إلى هذا الكون النسيق الذي عمّره شاكر وحمل له الحجارة بمنقاره .. حجراً .. حجراً .. من مقالع القمر .. ومن نهار عينيه ..

لذلك أوثر أن أسمي هذه المحاولة ـ أغنية إلى شاكر مصطفى ـ لا مقدمة . فأنا ـ بيني وبينك ـ لا أؤمن بالدهاليز في الفن .. ولا أؤمن بالوساطة ولا الوسطاء. وأحلف لك أن الدليل الذي مشى بي إلى صورة «الموناليزا» في رواق من أروقة اللوفر ، قتلني .. وترك «الموناليزا» قتيلة بين يديّ .. بشرحه الذي يردده كالببغاء ..

ماذا لو تركني هذا الرجل الببغاء أرى (الجوكندا) بعينيَّ أنا... وألمّ الكرز بيدي عن جوانب فمها .. حبة حمراء .. وحبة على موعد مع الحمرة ..

*

لا أدري لماذا كلما قرأت قطعة لشاكر مصطفى ، تذكرت رقص الباليه دون أي فن آخر .. فتطاير حروفه على الورق .. والتنوع الذي يمطرك به كقطيع نجوم، والأناقة التي يقدم بها أفكاره ، والزركشات الشعرية التي يضعها في طريقك كالهدايا يقع عليها الأطفال في المدفأة في ليلة عيد الميلاد ..

كل هذا يذكرني بلوحات الباليه وبحديث الأرجل وهي تلمس خشب المسرح لمساً حنوناً يشبه طيران الفراش الليلي، وحديث الرسغ والمفصل ، وصلاة الأصابع وهي تفتح دربها إلى الله .. وحوار الأظافر وهي تمسك نجمة .. وتفلت نجمة ..

إن شاكر مصطفى لا يرمي حروفه رمياً على خشبة المسرح .. كل فكرة لديه تعرف موضعها .. وكل نقطة .. كل فاصلة تقف في مكانها وسط ديكور المسرح المضاء ..

لا فوضى .. ولا مصادفة .. في أدب شاكر مصطفى وفي كل أدب جيد ، بل لا مصادفة في الحياة المبدعة إطلاقاً ..

إن أصغر زهرة تمد رأسها الأبيض على سور حديقتنا تكلف الربيع عزلة تسعة أشهر تحت الأرض، بين المخططات، والأقلام، وقوارير اللون، فيا ليتنا نتذكر ونحن نقطع حزم الزهر من جنينة جارنا .. ونملأ أفواه المواقد بحطب المشمش ، الزمن الذي استغرقته الأرض لتطلع الغصن الذي نجعله في مزهرياتنا زينة .. وفي مواقدنا لهباً ..

*

وبعد .. فهذا سفير جمال يخرج من غابات بلادي بمئزر قديس وعصا ساحر، «الكلمة الطيبة» لا تسقط من فمه لأنها جزء من فمه، والزهور البرية الغريبة تتمنى لو صارت زاداً في سلته ..

و«الكلمة الجميلة» وهي عندي أطيب من الكلمة الطيبة، لماذا نسيها شاكر؟ وهي تتكمش برئتيه كالنحلة الشرهة ببنفسجة ممتلئة .. وتنفرط حرائق من بؤبؤ عينيه ، وأنجماً من شق ريشته ..

وما هو الأدب إن لم يكن «الكلمة الجميلة» التي لا تفتح أمامك مغالق صخرة «علي بابا» فقط على حد تعبير شاكر ، وإنما تفتح أمامك ألف نافذة على وجه الله ..

في البدء كانت الكلمة . والفنون كلها كلمات . الموسيقى كلمة على فم الوتر .. والتصوير كلمة على فم اللون .. والنحت كلمة على فم الرخام .. والزنابق على الربى .. والنجوم في السماء .. والعيون الكبيرة السود .. كلمات تنتظر من يقولها . وما أشقى النجوم والعيون يوم لا تجد من يقول لها أو يقول عنها شيئاً ..

إن امتياز الكلمة يأتي من أنها الأداة الطبيعية للتعبير عن المشاعر الإنسانية ، فهي لا تحتال على الوتر كما تفعل الموسيقى ، ولا تتكئ على الحجر كما يفعل النحت ، فالأداة والموضوع في الأدب وحدة غير منفصلة.

((الكلمة الجميلة)) هي أنا والوجود مجتمعين . أنا والأرض التي أطلعتني، والإنسانية التي تحتاطني ، والجماعة التي أقاسمها حديث النهار وخبز المساء .. ووطني الذي يعيش ورقاً أخضر في ظني ، وناراً مؤججة في عيوني . فما أظلم الذي يسألني بعد ذلك أن تكون الكلمة في حلقي إنسانية أو «ملتزمة» على حد تعبير الكلمة الدارجة اليوم .

إن الكلمة التي أكتب ليست طفلاً بلا نسب . إنها تراث عاطفي واجتماعي وإنساني يحمل سعال أبي ، ونداء أمي ، وشجار صبيان حارتنا .. وشكوى مزاريب بيتنا القديم التي لا أبيعها بسمفونيات الدنيا مجتمعة . (الكلمة الطيبة) .. سهلة .. أما (الكلمة الجميلة) .. فآه .. ما أصعبها ..

أن تقول لحبيبتك: عطرك جميل .. كلمة طيبة . أما أن تقول لها : إن لعطرك فماً ينادي ! .. فشيء آخر يتطلب أن تنبش نفسك من جذورها بحثاً عن كلمة صغيرة .. أميرة .. تطفر على الورق فرحة كفراشة حرير تحررت من شرنقتها ..

وشوشة صغيرة أريد أن أبوح بها قبل أن أذهب . وهي أن شاكر مصطفى - من زاويتي أنا - أول كاهن بشّر بنثر فني من طراز لم يعرفه تراب بلادي منذ سنين .

فأنا الأدب عندي ((تعبير غير عادي عن مشاعر عادية)) فإذا شاركتني هذه النظرة فإنك ستشم في أدب شاكر طيباً غير مألوف ، طيباً غير الذي تشمه في واجهات المكتبات .. وحوانيت الوراقين .

ولقد كنت ولا أزال أعطي هدب عيني لحرف جديد لم يدر ببال أبجدية بعد .. ولم يزحف في جبين إنسان .. حرف يتعذب من أجل وجوده على الورق .

فإذا أحببت شاكر مصطفى فلأنه عرف عذاب الحرف ، ورائحة الظنون وهي تحترق .

أحبه لأنه فاتح درب .. شقها بمحراث منحوت من أضلعه ، ودوزن كل حصاة .. وكل ورقة فيها ..

أنا أحب شاكر مصطفى .. وهذه الأغنية التي كتبتها له ليست مقدمة وإنما دعوة إلى حبه ..

1955

الشعر قنديل أخضر

أسهر معكم على ضوء حرف جميل . على ضوء هذا القنديل الأخضر الذي يسمونه الشعر ..

الشعر قنديل أخضر علقته أصابع الله في داخلنا .. قنديل أروع من ألف شمس . أكبر من ألف شمس .. لأنه في اشتعال دائم لا يعرف كسوفاً ولا خسوفاً .

الشعرُ نار الإنسان . ونار الإنسان لا تموت ما دام في شرايين قلبه قطرة زيت .. قطرة حب .

كتابة الشعر عذاب جميل . أما قراءته فعذاب أجمل . ذلك أن الشاعر في لحظات الخلق يواجه التجربة وحده ، يكون هو النار والوقود معاً . أما حين يقرأ شعره فإن مهمته تكون أصعب لأن عليه حينئذ أن يبحث عمن

يقبلون بمحض إرادتهم واختيارهم أن يدخلوا معه منطقة النار .. وبكلمة واحدة أن يحترقوا معه .

وحين يكون الإحتراق كاملاً ، أي حين يستحيل الشاعر والمتذوق إلى جمر متوهج ، ويختلط رماد الأول برماد الثاني تكون عملية النقل الشعري قد بلغت غايتها .

إن القراءة الشعرية ليست أبداً تكراراً لتجربة ميتة ، إنها بعث التجربة بلحمها ونبضها وأعصابها مرة أخرى .

القراءة الشعرية عمل متعدد الأطراف ، وهي أشبه بالقبلة الناجحة يستحيل تنفيذها من جانب واحد .

العمل الشعري لا يكتمل إلا (بالآخرين) . وبغير (الآخرين) تبقى التجربة الشعرية في جبين الشاعر

كالعطر المحبوس في أحشاء البرعم .. لا ينتفع به حقل ، ولا تفرح به رابية .

(الآخرون) هم الآلات الرئيسية في تنفيذ السمفونية الشعرية ، هم الذين يترجمون نزوات الشاعر وأشواقه ويحولونها من أشكال موسيقية مرسومة على الورق إلى اهتزازات مسموعة ..

وبعد ، لا أريد أن أطيل معكم مشوار النثر .

إن القنديل الأخضر ينتظرنا ، فلندخل معاً منطقة النار .. أي منطقة الشعر .

1960

الخبز والزنبق

إفتتاحية العدد لي .

يفترض فيَّ إذن أن أكون نافعاً . أن أحمل للقارئ على كتفي خبزاً وعسلاً وطحيناً . أن أشحن كل نقطة ، كل فاصلة بملعقة فيتامين تزيد شحم الناس ولحمهم . أن أجعل أدبي كجمعية تعاونية تمون الناس بالفحم ، والزيت ، والدواء ، ولا تهتم إلا بمعدة الجمهور وجهازه الهضمي .

إفتتاحية العدد لي .

يفترض فيّ أن ألبس ثياب الأئمة والواعظين ، أن أتغرغر بخطبة يتثاءب تحتها المنبر .. خطبة أبدؤها بنصف دستة حكم مأثورة تحمل رطوبة التوابيت ،

وأنهيها بنصف دستة أخرى من أبيات ذبحتني وذبحت تاريخ أدبي . أبيات فرضت على أذهاننا الصغيرة في يوم من الأيام كما تفرض قرارات منع التجول .. أبيات كأحكام المحاكم العرفية لا تقبل الطعن ولا الإعتراض .

هل تذكرون هذا الهراء : " كل من سار على الدرب وصل .. " وهل تذكرون " النرجس الذي لا ينبت إلا من بصل " ؟

هل تذكرون أيضاً مياه (فيشي) التي نشربها نحن :

(ويشرب غيرنا كدراً وطينا ..)

هل تذكرون هذه الدستورية والديمقراطية في مثل هذا البيت الجبان :

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدارُ

فاحكم فأنت الواحد القهـّـارُ ..

*

إفتتاحية العدد لي .

إذا كان هذا هو النفع الذي ترجون مني فيؤسفني أني لا أستطيع أن أكون نافعاً .

إنني أحمل لكم في يدي كدْسَ زنبق .. مواعيد جمال .. قطيعاً صغيراً من النجوم جمعته لكم من رغوة الثلج في عنق حبيبتي .. من احتكاك قميصها بجبهة الشمس .

أنا ناقل عطر . سفير يحمل الزنبق إلى مزهريَّـاتكم .

ليس عندي لكم خبز .. ولا كساء .. ولا دواء . حياتكم أثمن من أن تستحيل إلى مخبز لا تعبق منه إلا رائحة الطحين .. وحروفي أثمن من أن تكون قنـَّباً يحرق في ذلك المخبز ..

اسمحوا لي أن أحمل إلى بيوتكم بعض الزنبق الذي قطفته لكم من رغوة الثلج في عنق حبيبتي .. من صباح ذراعيها .

الخبز وحده لا يكفي لملء حياتكم ، لملء أيامكم .

لا كان البيت الذي لا يتعانق فيه بياضُ الرغيف .. وبياض الزنبق . لا كان ..

*

إفتتاحية العدد لي .

كان أبي في طفولتي ينظر إليّ بعينين صافيتين حزينتين ويقول لأمي : " لن ينفع هذا الصبي الواهم نفسه ، ولن ينفع الدنيا بشيء .. "

مرت اثنتا عشرة سنة على هذا الكلام .

مات أبي وهو يحتفظ تحت مخدته بمسوَّدات آخر قصائدي . آخر كلمة قالها أبي قبل أن يموت .. كان نصفها صلاة .. ونصفها الآخر بيت شعر قاله الولد الذي لن ينفع الدنيا بشيء ..

ذهب أبي وهو يحتفظ إلى جانب زجاجات دوائه بمجموعاتي الشعرية الثلاث ..

ورجعت من لندن لأقنع أبي أنني استطعت أن أنفع الدنيا بشيء .. على طريقتي الخاصة . ولكنني لم أجده . كان قد ذهب .

أردت أن أقنعه أن نفعي من نفع السمفونية تعزف في قاعة من قاعات العزف في فيينا ، من نفع لوحات سيزان وفان كوخ وغوغان ورينوار ، من نفع باليه (بحيرة البجع) لتشايكوفسكي وكونشرتو البيانو لرحمانينوف ، وسوناتا ضوء القمر لبيتهوفن وفنلانديا لسيبليوس .

أردتُ أن أقول كل هذا . ولكنني لم أجده . كان قد ذهب .

*

إفتتاحية العدد لي .

وضعتُ يدي على مفتاح المشكلة .

نحن نطلب من الجميل فوق ما يحتمل .

لم يعد يقنعنا طيب الزنبق . نريد أن نأكل ورقه الأبيض .

والأدباء الملتزمون ـ على اختلاف دعاواهم وقضاياهم ـ ليسوا سوى مبشرين بأكل الجمال .. ليسوا سوى أكلة زنبق . هنا تختلف . لأن الجمال يجب أن يبقى في معزل

عن (التصنيع) و (التأميم) ومراكز الخدمات الاجتماعية .

الجمال يحمل ثوابه في نفسه . وإذا جاز لي أن أستعمل تعبير النفع على طريقة الملتزمين فإنني أقول إن المريض ينتفع برعشة القصيدة الجميلة تقرأ له مثلما ينتفع بجرعة الدواء . ومن يدري ربما كان وقع الأغنية لدى المصدور أجدى من وقع شعاع الشمس على نافذته ..

إنني ضد نظام السخرة في الأدب . ذلك النظام الذي جعل ألوف القصائد العربية تمسح جباهها بأقدام الحاكم أو الأمير . والإلتزامية الحديثة كما نلمحها في آثار كتابها ، ليست سوى شكل جديد من أشكال نظام السخرة ، مع فارق واحد وهو أن المسخـِّـر كان في الماضي فرداً وأصبح اليوم نظاماً اجتماعياً أو عقيدة سياسية . أي أننا استبدلنا ديكتاتورية الفرد بديكتاتورية المجموع .

قد تقول لي إن ديكتاتورية المجموع هي عادلة وإنسانية . أنا معك ، ولكنها مع هذا ديكتاتورية .

وأدب الأديب لا يمكن أن يعيش في ظل أية ديكتاتورية مهما كان شكلها .. ومهما كانت أغراضها نبيلة .

ألا تصدقني . إذن فافتح أية مجلة أدبية واقرأ هذا الطوفان من القصائد عن قضية الجزائر ، لتعرف أن نبل القصيدة ومضمونها الاجتماعي لا يكفيان وحدهما لجعل القصيدة عظيمة إذا لم تكن عظمتها في كبرياء حروفها وجنون مسافاتها وروعة تصميمها .

وددتُ لو لم تصل هذه المخلوقات المشوهة إلى ثوار الجزائر فإنهم بدونها بألف خير .

إفتتاحية العدد لي .

لم أكتب شيئاً من الإفتتاحية حتى الآن .

لم أخطب على طريقة زياد بن أبيه . هذا تمرد على أسلوب الإفتتاحيات . إنني أحب نكهة تمردي .

الحرف الذي لا يعرف متى يثور ، وكيف يثور نجمة مطفأة . حجر ملقى على كتف الطريق .

نريد أدباً يحرق الطريق .. لا أدباً لا تشعر بمروره الطريق ..

1955

البنادق .. والعيون السود

(من رسالة إلى صديقة مجندة)

أيتها الصديقة .

الآن تعودين من معسكر التدريب ، وأنت كالراية المتعبة ، كالزورق العائد من رحلة مجد ..

جلست أدخِّن .. وأتأملك قطعة قطعة .. كما لو كنت لا أعرفك من قبل .

عيناك النقيتان كأمطار ليلة افريقية ، قميصك المعقود الأكمام الذي تركت عليه البندقية بقعاً من الزيت أطهر من زيت المعابد .. أطهر من الطهر ..

غطاء الرأس الجامح على شعر فوضى .

لباسك المعجون بذرات التراب ، ورؤوس الشوك ، ورائحة الأرض .

جوربك الصوفي الخشن ، راحتاك الملوثتان بشحم الزناد ، حذاؤك الأكل من جبين الصخر يترك على أرض الحجرة قطعاً من طين يابس هي أثمن ما تضمهُ حجرتي من تحف .

أرأيت كيف تنتقل بلادي إليّ . كيف تتحول إلى ذرة غبار على قميص شجاع .

*

قعدت أتأملك وأنت كزهرة اللوتس الوحشية .. ليس على فمك شيء .. ومع هذا فهو أروع من كل شيء .. ذلك الثغر الراقد كنصف كرزة حمراء .. لا تعرف من الطعام غير الهواء .. والشمس .. وجيرة العصافير .

*

قعدتُ أتأمل حسنك من زاوية جديدة . أنا أمام تجربة جمال لم أمر بها من قبل . لم يمر بها هذا الشرق من قبل .

كانت المرأة في بلادنا قطعة من قطع الآثار .. ليرة ذهبية ملفوفة بالقطن .. تعويذة كتبها شيخ لا يعرف الكتابة . ثم انفكَّ السحر يا صديقي وخرجتِ من قطنك .. من الصدفة الباردة المغلقة . وها أنت تجلسين أمامي أغنية بطولة تقرع نوافذ الشمس .

مضى عهد يا صديقتي كانت المرأة فيه دمية مطاط في يد الرجل يضغطها فتغني ، ويزجرها فتسكت .

مر عهد كانت فيه أكبر مغامرة بطولية تنفذها امرأة هي أن تذهب إلى حمام السوق ..

أما سمعت قول أحد الفقهاء ((تخرج المرأة من بيتها مرتين .. مرة إلى بيت زوجها .. ومرة إلى القبر ..))

تأملي هذا المخطط الذي رسمه ذلك السخيف . تأملي هذا البرنامج الحافل الذي وضعه لتنقلك وتنقل زميلاتك .

مشواران فقط .. واحد إلى دار الزوجية .. وواحد إلى دار الأبدية . المهم أن صاحب القول قبر في المكان الذي أعدَّه للمرأة .. وخرجت المرأة من قوقعتها

الكلسية .. قفزةً واحدة .. إلى العراء .. إلى ملاعب الرياح والشموس ..

*

أحاول الآن أن أدرس أشواقي من جديد . أن أبحث قضية الحب . حبي لك .

قد تقولين : ما نفع هذا ونحن لم نتغير ؟ هذا خطأ . إنني أشعر بتغير جذري في لون حبي .. في نكهته .. في طاقته .. في اتجاهه ..

ترى هل تختلف قضية الحب بين حالة السلم والحرب .

هذا سؤال تحرك في جبيني أكثر من مرة .

*

أنا أقرر أن شيئاً ما قد وقع فأعطى جمالك مفهوماً جديداً وأعطى حبي لوناً آخر ..

إنني معجب مثلاً بهذه الكدمة الصغيرة التي تركها الزحف على التراب فوق مرفقك . معجب برائحة اللاشيء .. نعم برائحة اللاشيء تصدر عن فتحة قميصك المتعب ، معجب بأظافرك التي كسرها قتال الخنادق واحداً .. واحداً .. معجب بما حملت معك من معسكر التدريب من تعب .. وغبار .. وقطرات عرق ..

أعود إلى الكدمة الصغيرة المرسومة على مرفقك .. هي حرف مجد يستحق أن يعبد .. إشارة بطولة يصلى لها ..

لم يعد يهمني صفاء البللور في الأصابع الشمعية .. كفرتُ بملاسة الشمع . . أصبحت أبحث عن معنى الأصابع قبل الأصابع .. عن بطولة اليد قبل اليد ..

*

هكذا هدمت المعركة كل مفاهيمي الجمالية . فلا تستغربي أن أزهد بكل ما تعبق به خزائنك .. من أصفر .. وأسود .. وليلكي .. وأقف ساعات أمام بقعة زيت تركتها بندقية على قميص مجندة من بنات بلادي ...

ماذا ؟ هل غيرت معركة بور سعيد حواسِّي أيضاً .. إن رائحة العطر التي كانت تنسف أعصابي من جذورها في الصيف الماضي لم تعد ذات موضوع . أشياء كثيرة كانت تزلزل وجودي في زمن السلام لم تعد تفعل بي شيئا ..

وفني ، كجمالك ، تغير يا صديقي بحركة داخلية تلقائية .. مدَّ أظافره ونشر ريشه كما يفعل الطائر أمام خطر داهم بدافع من غريزته ..

لقد أخذت القصائد مكانها في الخنادق .. وتحت الأسلاك الشائكة ، وحاربت بجميع ما يحمل الحرف من طاقة وقوة تفجير ..

البنادق .. والقصائد .. والعيون السود .. كلها أصبحت فحماً مشتعلاً في ليل المعركة .

فيا صديقتي .. يا ذات القميص المعقود الأكمام ..
والشعر والفوضى ، والفم المصبوغ باللاشيء ..
والكدمة الصغيرة التي تُضَمُّ وتعبد ..

سلامٌ عليك .

1956

رسالة

أيتها الغالية ..

أغامر .. وأطلق هذه الرسالة إليك ، كعصفور يغمد ريشه في فيروز السماء للمرة الأولى .

هل ترى يقدَّر لهذا العصفور المهاجر من صدري أن يصل إلى أستار نافذتك ؟ هل يقدَّر لرسالتي أن تحطَّ على أناملك الخمس .. كنجمة أرهقها السفر .

هل تنجو رسالتي إليك من أيدي اللصوص .. وسفن القراصنة .. وخنجر أبيك .

لا أدري .. لا أدري فمدينتنا تغتال رسائل الحب كما تغتال زهيرات الدرَّاق في أول تفتيحها . مدينتنا تذبح حروف الحب كما تذبح خراف العيد وتتلمَّظ بدمها الساخن ..

مدينتنا ترفض الحب . ترفض أن يزورها نوَّار .

*

أمس . كتبتُ قصيدة لك .

كتبتها رغم إرهاب المدينة التي ترفض أن يزورها الربيع ..

كتبتها لأنني أحبك .. ولأنني لا أستطيع أن أبتلع أحزاني . فأنا يا صديقتي رجل قدره أن يكتب شعراً .. أن يكوِّر الصلصال الساخن .. أن يدوّر حروفاً تشتعل على الورق كرؤوس البراكين الصغيرة .. أن يرسم ألف نجمة في

ثانية .. ويمحوها بأقل من ثانية .. أن يفصِّل لقدميك الصغيرتين خُفّاً مضفوراً من زعتر الغابات ولآليء البحر ..

ولأنني أكتب شعراً يا صديقتي ، لأنني أكتب عن ضفائرك بيادر القمح والذهب .. طاردني الناس واعتبروني مجنوناً .

أنا عندهم مجنون لأنني فتحت الستائر عن عينيك الخضراوين .. لأنني وضعت في جيبك نصف قمر بنفسجي ..

إنهم لا يحتملون الحرائق الكبيرة .. في العيون الكبيرة .. إنهم لا يفهمون قضيتي وقضية عصافير الصيف المهاجرة إلى عينيك ..

أنا مجنون لأنني كتبتُ اسمك على جدران المدينة التي لا يزورها نوّار . ولا تفكر بسقوفها العصافير .

أنا مجنون لأنني حملتُ المطر إلى المدينة التي نسيتها الأمطار .

أنا مجنون في منطق المدينة التي لم يهذبها الجنون .. لم يعطرها الجنون . وأشعاري كالخطيئات الطاهرة يعانقها الناس ويشتمونها .

*

مزّقي هذه الرسالة .إن فيها مادة محرمة . شعر . شعري أنا . ففي مدينتنا تحرق دواوين الشعر كما يحرقُ الحشيش المصادر .

الشعر ، يا صديقتي ، هو عاري .. عاري الجميل . هو صليبي الذي أرفض النزول عنه . وأنا لا أريدك أن تصلبي معي .. ولا أريدك أن تحملي عاري .

ليتني أستطيع أن لا أكتب إليك . ليتني أستطيع . ولكن يبدو أن لا خيار لي . فالشعر هو الرئة التي أتنفَّس منها ، إنني لا أقدر أن أهرب منه . إنه أمامي .. ورائي .. في ردائي .. في خلاياي .. في أصابعي .. إنه كلون عيوني لا أستطيع الهروب منه .. إنه قدَرَي ..

أما قدرك أنتِ فهو أن تكوني حبيبتي . ولن تهربي من هذا القدر أبداً لأنه كلون عينيك البنفسجيتين لا حيلة لك باختياره ..

7 آذار 1962

رسالة .. ثانية

صديقتي .

رسالتُك أرخم أغنية مرَّتْ بذاكرة وتر . أصفى من لثغة العصفور الدوري . أعذب من هتاف نجمة لنجمة .

هل أبكتك رسالتي حقاً ؟ إني سعيد لبكائك . فما كل يوم يتساقط الكريستال السائل بمثل هذه الغزارة . ما كل يوم يبكي تشرين بمثل هذه الروعة يا صديقتي .

إن رسالتك ناعمة . لكنها ظالمة .

ظلمتني حين مسحت بضربة ريشة واحدة كل تاريخي معك .. كل هذا الكون الذي عمرته لكِ من نحاتة الأقمار ، وأعناق الشحارير ...

حتى أنت تقولين هذا يا صديقتي . يا من صنعتُها من زبد الموج في خلجان بلادي . يا من فصَّلت لها من حشائش البحر قميصاً لم يحلم به غازل .. يا من حملت إلى عينيها جميع غابات الكستناء وجميع أوراق الدوالي ...

أبضربة ريشة واحدة تمسحين مجد حروفي وأنت تعرفين أنها المرايا التي تتمرين بها ..

إنني لا أصدق ذلك . شفتاك الكرزيتان ستموتان بدون شعر .. بدون أغنية تسقيهما . فلا تحطمِّي في لحظة حماس قصائدي - الأواني التي عبأت فيها جمالك - فإنك بعد هذا لن تجدي ما تتعطَّرين به .. ما تعطِّرين به غرورك .

في رسالتك الأخيرة طلبت إليّ أن أغيَّر طريق حبي لك . لا تسأليني هذا فإنني أخشى لو فعلت أن تموتي بين يديّ .

إياك أن تجعلي من الحب مسألة حسابية . فالحب العظيم هو الحب الذي لا يعرف الحساب . هو الحب الذي يلقي بنفسه في المحيط .. بدون طوق نجاة .

وأحسن طريقة نحبٌّ بها هي أن نحبّ . وأحسن طريقة تثيرين بها مخيَّلة الرجل هي أن تظلي امرأة .. لا فرق أن يكون لهذه المرأة شكل الأرنب المسالم .. أو القطة البيضاء .. أو الزلزال المدمِّر ..

كوني ما شئت أرنباً .. أو قطَّةً .. أو زلزالاً .. ولكن كوني امرأة ..

في رسالتك تقولين إنني إله مغرور .. وأنك لم تكوني بين يديّ سوى حيوان جميل مثير !

هل أنا إله مغرور حقاً ؟

ثقي أنني لست ذلك الإله الذي تخترعين .. ولا أريد أن أكونه . أنا من هذه الأرض ، من حرارتها من اختلاف

رياحها ، من تقلب فصولها ، من تشقق قشرتها و من سلام أماسيها ولهيب شموسها .

أنا من التراب الذي ينبت الصلوات والخطيئات . فإذا شممت في شعري رائحة الصلاة مرة.. ورائحة الخطيئة مرات .. فلا تنكري ذلك لأنني جمعت أزهاري من هذه الأرض التي أمشي عليها أنا .. وتمشين عليها أنت ..

ولا بدَّ لاكتمال حسن الإناء من تنوع أزهاره . الزهرة السوداء لا يستغنى عنها عند تنسيق الآنية لأن زهور العقل والحكمة هي كالزهور الإصطناعية .. لا رائحة لها .

*

ملاحظة : لا تحتفظي بهذه الرسالة في جيبك . إن فيها مادة محرَّمة . شعر . شعري أنا .. ولأنني عند أهل مدينتي رجل مجنون مهنته أن يضرم الحرائق الكبيرة .. في العيون الكبيرة .

مهنته أن يحبَّك يا سيِّدتي ..

1956

الأدب المستريح

أكتب لكم عن الأدب المستريح في بلادنا .

لم أشأ أن أسمّيه الأدب الكسيح .. أو الأدب المتقاعد .. أو الأدب المصاب بلين العظام ..

اخترت الصفة الأقل ظلماً لأكتب لكم عما أسميه متسامحاً (الأدب المستريح) .

إنه الأدب الذي نشف الزيت في مفاصله ، وتصلبت عضلات الحركة في قدميه . إنه الأدب الذي نسي غريزة المشي .

ما هو موقفنا من الأدب الذي لا يمشي ؟ .

إنه موقف الحياة نفسها من كل كائن يتوالد ، موقف المجتمع من كل عضو لا ينتج ، موقف صاحب الأرض من كل شجرة لا تثمر في حقله .. الإهمال .. ثم القطع .. ثم أحشاء الموقدة .

الحياة لا تهمل إلا الذين يهملونها و ولا تكافئ إلا الذين يقابلون هداياها الجميلة بهدايا ذهنية أجمل.

أسطورة السلطة الإلهية للملوك والأدباء انتهت . وتيجان المجد لن تعطى بعد اليوم إلا لمستحقيها لن ترفع إلا على الرؤوس الحبلى بالهبات ...

لا نريد أن نظلم أحداً . ولكن لن نسمح لأحد أن يظلمنا بعد اليوم . لن نسمح (للألقاب العثمانية) أن تجلس على رقبة الأدب وتمدَّ رجليها . سنمزق (الفرمانات) التي جعلت من هذا شاعر العرب .. ومن ذاك شاعر الشام الأكبر ..

مثل هذه الألقاب يجب أن تصادر من أصحابها كما تصادر قطع الأرض العائدة للأمة من مالكيها عندما يهملون حرثها وريها وإنباتها .. وتعطى إلى مالكين جدد .. والفرق بين المصادرتين أن الواحدة تتم في سبيل النفع والثانية في سبيل الذوق العام .

و(الذوق العام) هو قوس المحكمة التي تنظر في أمر هؤلاء العاطلين عن العمل ، لأنهم استهانوا بكرامة الذوق العام ، وكفروا بمسؤولية الحرف وانسحبوا إلى قواقعهم الرطبة يشربون السوائل الساخنة ويشدون على بطونهم أحزمة الصوف ..

نحن عمال في مصنع الأدب الكبير . كل واحد منا يصنع الجزء الذي يناسب مواهبه وكفاءته من التمثال الضخم الذي سنعرضه على الدنيا .

هذا يرسم المخطط ، وهذا يعجن الصلصال وهذا يخبزه .. وهذا يصقل بالسكيِّن نتوءات الطين الصغيرة ..

و(الذوق العام) ينتظر خارج أسوار المصنع ولادة التمثال .. وعند الذوق العام يكون الثواب ويكون العقاب . حتى أولئك العمال الذين شاركوا في صنع الأجزاء الثانوية من التمثال سيكرمون لأن شرف العمل لا يتجزأ . إنه كمطر تشرين لا ينسى ربوة .. ولا يهمل سفحاً ..

أما (المستريحون) الذين كانوا خلال عملية صنع التمثال يتشمسون على سطح المصنع ، ويشمّون النشوق .. ويشربون محلول البابونج .. فإن الجماهير خارج أسوار المصنع ستستقبلهم بالصفير .. ومدّ الألسنة .

لقد نضج الذوق العام عندنا بشكل يدعو إلى الدهشة . إنه لم يعد ذلك الطفل الذي يقتنع بلعبة مطاط توضع بين يديه .

منذ عشرين عاماً تفتحت مداركنا الصغيرة على طبقة من الأدباء كانوا يبيضون كل سنة بيضة على مدرج الجامعة السورية أو في حديقة المنشية ، أو على سور مقبرة الدحداح ..

كانت مواسمهم معلومة ومحسوبة على عقارب الساعة ، لا تخرج عن نظم قصيدة في ذكرى أربعين ميت .. أو تهنئة رئيس برئاسة .

في تلك الأيام كنا أطفالاً ، وكان الذوق العام أكثر طفولة منا .. كنا يومئذ لا نفرق في الفن بين (الجاهز) .. و (التفصيل) . بين القصائد الطازجة .. والقصائد المحفوظة على طريقة الأطعمة المحفوظة ..

كنا نقوم ونقعد للقصائد ذات المئة والعشرين بيتاً وهي مرصوصة كأسنان المشط .. كالمسدس سريع الطلقات .

وكبرنا وكبر الذوق العام . لم تعد تشبعنا الأطعمة المحفوظة . لم تعد تقنعنا الهدايا التافهة . لم تعد تثيرنا القصائد السريعة الطلقات ..

وتلفتنا إلى الأبطال الذين طالما ملأوا مخيلتنا يوم كن صغاراً بالرؤى والأحلام العريضة . تلفتنا إلى هؤلاء الفرسان فلم نجد إلا هياكل خشبية لها شكل الفرسان ولكنها لا تتحرك إلا بواسطة المسننات والنوابض ..

ماذا فعل فرسان الخشب لقضية الأدب في بلادي ؟

إنهم عانقوا وسائدهم وناموا منذ عشرين سنة . ناموا .. ورياح الفكر العالمي تلطم نوافذهم بدون هوادة .. وحوافر التاريخ تنبش تراب بلادنا كما لم تنبشه من قبل .

إذن ما خطب هؤلاء المستريحين ؟ هل أقعدتهم السن عن العطاء ؟ إنني لا أؤمن بهذا ، فتاريخ الإنتاج الأدبي يثبت أن أروع آثار الفكر التي عرفتها الإنسانية إنما كتبها أصحابها وهم في سن النضج والاختمار . وفيكتور هوجو ، وطاغور ، وتولستوي ، وأرنست همنغواي وسومرست موم أمثلة قليلة على ما أقول ..

وعلى ذكر القصاص الإنكليزي العظيم سومرست موم ، أذكر أنني رأيته مرة على شاشة التليفزيون في لندن يتحدث في شؤون القصة والأدب وهو من شدة الجهد وإلحاح السن يكاد يسقط أمام أضواء المصورين .

ولكن مسؤوليته كقصّاص تغلبت على شيخوخته فجاء إلى التلفزيون مستنداً على كتفي ممرضة .. ليشعر الناس الذين يقرأونه أنه لا يزال منهم ولهم .

إن الأدب هو غرم قبل أن يكون غنماً . مسؤولية لا نزهة على شاطىء نهر . فعلى الذين يريدون دخول مصنع الأدب الكبير ، أن يلبسوا ثياب العمل ويغمسوا أيديهم حتى المرافق في الصلصال الساخن .

أما الذين يخافون على بذلاتهم المكويَّة من نثارات الطين .. وعلى أيديهم الملساء من الحروق والجروح .. فإن مكانهم هو المصحات حيث تتوفر لهم كؤوس الشراب الساخن .. وأدوية الروماتيزم .

أيها المستريحون . إن الذوق العام يطلب منكم أن تستريحوا .. وتريحوا ..

1956

السفينة العائدة

كالسفينة المتعبة أعود إليكم لأريح جبيني على جبين أصغر حصاة في بلادي .

ثلاث سنوات وأنا أطوف . طموحي أوجعَ الشمس . ويدي احترقت وهي تصطاد النجوم .. وهي تنكش في ضوء النجوم .

حروق يدي لا تؤلمني . ما أشقى اليد التي تخاف تلقيط النجوم .

*

ثلاث سنوات وأنا على خشبة مغامرة .. أغرقت البحر ولم تغرق ..

زرعتُ خيمتي عند سور الصين العظيم .. نمت في مزارع الشاي .. وحقول اللوتس .. غسلت وجهي بأمطار الغابات الإستوائية .. حيث لزنود النساء طعم يشبه طعم التبغ .. ونكهة البُنّ المحروق ..

ثلاث سنوات .. وأنا دائخ وراء كلمة ، وراء فلذة كلمة .. أضيفها إلى ألوف الكلمات الحلوة التي صنعت أدب بلادي .

ثلاث سنوات وأنا أحمل بلادي في صدري . أخبئها في جفون كلِّ حرف كتبته .. في كلِّ نقطة حبر سفحتها على الورق .

ثم يأتي إليك من يقول : أين الوطن في شعر هذا الشاعر ؟

الوطن مرسوم في كلّ فاصلة ، في كلّ رشة حبر يتركها أديب على الورق ..

رائحة الوطن هي رائحة مدادنا .. وشواطئه وجباله ، وأقماره ، ونجومه ، وعيون نسائه هي بعض أبجديَّاتنا .

بلادنا مجموعة كلمات جميلة .

كلمة منك . وكلمة مني . قشَّة تحملها أنت . وقشَّة أحملها أنا .. هكذا يصنع الربيع .

وأنا يسعدني ، ألف مرة يسعدني ، أن أكون عُشبة صغيرة في هذا الربيع ، أن أكون خطاً بين خطوط اللوحة الكبيرة التي ترسمها أصابع الموهوبين في بلادي .

1960

كلمات مكتوبة بحبر العناقيد

موعدي مع زحلة ، أحلى موعد أعطيته في حياتي .

هل يتاح لشاعر أن يرقد على مخدَّة من ورق الدوالي ويتردَّد ؟

هل يتاح لشاعر أن يكون منبره مصنوعاً من ضفائر عريشة ، ويرفض النوم على تخت من الضفائر لا أطرى ولا أطيب .

ما أنا .. ما أنا .. من يهرب من معركة العناقيد .. ومعركة الضفائر .. فهي المعركة الوحيدة التي يطيب لي أن أموت على أرضها . المعركة الوحيدة التي تكون نكهة الهزيمة أحلى من نكهة النصر .

في دمشق ، تركت كلَّ محابري وألواني . ففي زحلة لا لزوم للمداد والأصباغ والمحابر !.

العناقيد الحمراء والسوداء التي تشرق بالضوء والسكر على روابيكم هي المحابر الطبيعية التي يتمنى كلُّ موهوب أن يغطَّ حروفه فيها .. ويستحمَّ في نزيفها الذهبي .

أنا في لبنان لأعطي شعراً . في يدي زوَّادة صغيرة ، فيها زهرات حمراء .. وأقمار بنفسجية .. وحروف تنبض كقلوب العصافير الصغيرة أول الصيف ..

لا لبنان تغيَّر . ولا قضية الشعر فيه تغيرَّت .

لبنان حقيقة شعرية كما هو حقيقة جغرافية . كما هو هواء وشمس .. وطيب مناخ . ووجود القصيدة فيه قدر

محتوم كحتمية وجود ثلوجه ، وصخوره ، وسنديانه ، ومساقط مياهه .

لبنان يغزل الشعر كما تغزل دودة الحرير شرنقتها .. كما تصنع المحارة لؤلؤتها ..

في لبنان يتحول حبري إلى ضوء مسموع ، ودفتري إلى عطر مقروء ..

في لبنان يتغير شكل يدي . مرة تأخذ شكل زهرة بيضاء .. ومرةً تأخذ شكل جمرة حمراء ..

*

طالما لعبت في طفولتي أمام (برْكة الشعراء) في زحلة . طالما مسحت بأناملي رخامها .. وطربت لوشوشة نافورتها المغنّية .

طالما تمنيت أن يعمِّدني أحد بمائها المثلج فأصبح واحداً من أولئك الشعراء الذين حفروا أسمائهم في ذاكرة الرخام وذهبوا ..

كان خيالي الطفولي مقتنعاً أن من لا يغمس أصابعه في ماء البرْكة المسحورة .. لن تكلمه جنيَّة الشعر .. ولن تأخذه معها إلى مغارتها المسحورة تحت البحر أبداً ..

وأنا كنت أريد أن أرى الجنية ذات العينين البنفسجيتين بأي ثمن .. كنت أريد أن تأخذني معها إلى بيتها المخبوء في جوف صدفة بحرية كبيرة .. لتعطيني خاتمها العجيب الذي كلما فركته مرة أعطاني قصيدة .

*

وكبرتُ أنا .. وكبرتْ زحلة . وعرفت أكثر من جنية واحدة .. وأكثر من عين بنفسجية واحدة .. وأصبحت مهنتي أن أفرك الخواتم المسحورة وأستخرج منها أشعاراً وأقماراً ..

واليوم أعود إلى برْكة الشعراء لأغمس أصابعي من جديد في الماء المثلج الذي تعمَّدت به عندما كنت طفلاً . أعود لأحضن بأهدابي رخامها المليس ونافورتها المغنية ولأردَّ لها بعض ما أعطتنيه في طفولتي .

ولكن هل يمكن لعطائي أن يكون في مستوى عطائكم .

هل بوسع قصائدي أن تكون في مستوى القصائد المنقوشة على الغيم والصخر وأجنحة العصافير ومساند الكروم في هذه المدينة التي هي أروع خيمة ظلّ يحلم بها مسافر .

*

ألقيت أشعاري في مدن كثيرة ، فلم يرتجف لي جفن ولم يحترق بي عصب ..

أما هنا .. أما هنا في زحلة فإن الأمر يختلف .

كيف أعطي زحلة شعراً وهي الشعر كلهُّ ؟ وهل تحتاج الجنة إلى غصن أخضر يضاف إليها ؟ هل تحتاج العناقيد المجوهرة الحبّات إلى أية حبّة جديدة ؟ وهل يحمل الشارب معه الخمر إلى الحانة ؟

تلك هي المشكلة التي عذبتني وأنا في طريقي إليكم . مشكلة ماذا أهدي لزحلة ؟ فالرجل عندما يفكر في أن يهدي حبيبته عقداً أو شالاً أو قارورة عطر يرضيه أن يعرف أن حبيبته لا تملك هذه الأشياء .

أما الحبيبة الجميلة التي أزورها اليوم فلديها كلُّ أشياء الجمال .. وفي خزانتها كنوز من الطيب والكحل والحرير .. ترهق مخيلة الرجل .

إنني أعرف أن زحلة أميرة أسطورية تنام على الحرير وتصحو على الحرير وأن ألف فارس ينتظر تحت شرفتها المقمرة ..

ومع هذا فقد حملت هديتي وجئت ، علّ الأميرة ذات الشرفة المقمرة .. والعينين القزحيتين ، تفتح بابها لتسمع استغفاري وتقبل أشعاري .

1962

الفهرس

نقله إلكترونياً :

ahmed15091981@yahoo.com

مع تحيات مدونـة العلم هو القوة :

http://nermeen.nireblog.com